# إشكال التسمية وأثره على الهوية في رواية "ما رواه المغربي" "لليلى العلمي" نموذجًا

الباحثة سكينة حجاج جوايد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان
المغرب

**ملخص البحث:**

لطالما انتهجت الامبراطوريات الاستعمارية سياسات ومظاهر متعددة لفرض سيطرتها المطلقة وهيمنتها الشاملة على المستعمرات وساكنيها، فتُعاملهم باضطهاد وتمارس ضدهم تحيّزات عنصرية، وتسلب حقوقهم وممتلكاتهم وتختلس هوياتهم، وتجعلهم ذوات مهمشة، فيصبحون مجرد تابعين على مستويات كثيرة، الشيء الذي يمنعهم من التمتع بوجودهم الإنساني ويفقدون بذلك إرادتهم الحرة .كل هذا في مقابل الآخر الغربي بخلفياته ومرجعياته والمنتمي للمركزية الغربية، المتشبّع بقيمها وما تملكه من صور نمطية عن الشرق وأهله، وتلك النظرة الدُّونية المتمثّلة في عدم قدرتهم وعجزهم على تقرير مصيرهم، بل وفي أحيان كثيرة تلجأ سياسات ممنهجة تجرد المحليين من صفاتهم الإنسانية ليتم بذلك شرعنة احتلالهم وغزوهم. وفي سياق الدراسات ما بعد الكولونيالية التي عملت بالأساس على إظهار صور وأشكال الهيمنة الثقافية والاستعمارية التي سعت إليها دول "العالم الغربي" — دول المركز – داخل دول "الهامش"، سعت أيضًا إلى نقد وتحليل ما خلفه الاستعمار ثقافيًا، سياسيًّا، اجتماعيًّا، واقتصاديًّا على المستعمَرات وساكنيها، واهتمت بدحض تلك الصور والتمثلات النمطية، المغالطة والسيئة حول كل ما هو غير غربي، ما أسفر عن ظهور سرديات مقاومة للسرديات الاستعمارية الكولونيالية ذات الهيمنة الوقوة، والتي تقتات على مركزية واحدة مُسيطِرة منحازة وغير بريئة وهي المركزية الغربية؛ التي تسعى إلى نفي الآخر غير الغربي دون أن تراعي خصوصيته الدينية والثقافية.

في هذا البحث؛ سأسلط الضوء على جانب من الجوانب التي تناولتها الدراسات ما بعد الكولونيالية، قصد تقديم صورة واضحة لبعض ما خلّفه الاستعمار من آثار على الأفراد والشعوب وهويّاتهم، مُركّزة بذلك على إشكال التسمية ودوره في صوغ وتحديد هذه الهويات وذلك من خلال رواية **"ما رواه المغربي"** للكاتبة **ليلى العلمي** نموذجًا، فالرواية عكست تجربة إنسانية بطلها هو السارد نفسه **"مصطفى الأزموري"** أو ما سيعرف ب**"إستيبانكو"**، هذا العبد الذي با ع نفسه — بعد أن كان حرًّا مستقلاً — في مدينته أزمور خلال فترة الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية، الشيء الذي سيجعل مصطفى يعيش صراعات، وأوضاع فُرضت عليه ولم يخترها بسبب انتمائه إلى سيده.

ومن خلال ما سبق يمكننا طرح بعض التساؤلات بهذا الخصوص مفادها البحث عن:

- **ماهي أسباب وآثار تجريد الذوات المُستعمَرة من أسمائها الأصلية وإعطائها أسماء جديدة تحيل على البلد المُستعمِر؟**
- **وما هو دور هذه السياسات في تعزيز الهيمنة الاستعمارية الثقافية على الهويات؟**
- **وكيف يمكن للرواية أو للأدب بصفة عامة أن يدحض السرديات الاستعمارية ويقدم سرديات مغايرة؟**

## 1. الأسباب والآثار المترتبة عن تجريد الذات المستعمَرة من أسمائها وإعطائها أسماء كولونيالية:

بعد أن اعتُبرت السرديات الاستعمارية من المسلّمات التي لا تقبل النقد خلال فترة طويلة من الزمن، وبعد أن سيطرت الهيمنة الأوروبية على المعتقدات والتمثُّلات الذهنية سواء على شعوب الإمبراطوريات أو على الأمم المستعمَرَ، وهمّشت بذلك كل ما هو غير غربي وغير "أبيض"، فالهدف من ظهور "السرديات الكولونيالية بأشكالها المختلفة لبسط النفوذ الامبريالي وتحقيق الغزو الثقافي،"[1]، ولأن لكل فعل رد فعل؛ ظهرت سرديات مقاومة انتهجت سياسة الهدم والتفكيك وإعادة بناء هذه المسلّمات ونقدها.

والرواية باعتبارها من السرديات الكُبرى بأنساقها الثقافية المضمرة والتي تعزّزُ سرديات أخرى كبرى، ساهمت منذ زمن بعيد في تشكيل الهويات القومية، وأعطت صورة عن الذات والتاريخ خاصة في إطار ما بعد كولونيالي، فحاولت إعادة الاعتبار إلى الذات المهمشة في سياقها الثقافي والسياسي، وبيّنت ما شهدته هذه الذات والهويات من أزمات وصراعات في ظل المركزية الغربية، فقد عانت الذات المشرقية من العبودية والتبعية والاضطهاد أشكالاً عديدة، ومن بين تلك الممارسات التي انتهجها الآخر (الأوروبي) لطمس هوية المشرقي؛ **تجريده من إسمه الأصلي**.

إن الإسم بصفة عامة جزءٌ لا يتجزّأ من الوجود الإنساني، يُعرّفُ بصاحبه وبخلفياته ويعبر عنه، وفي إلغاء هذا الإسم وتغييره؛ إلغاء للهوية الشخصية وانتهاكٌ لكيان الأفراد وحقوقهم وكرامتهم، وهذا بعد من أبعاد النشاط الاستشراقي الذي يمثِّلُ "الممارسة الفكرية التي اقتضتها حاجة العقل الغربي لأن يشمل بكليته، المعطيات الثقافية للآخر، وإعادة إنتاجها، بما يجعلها تندرج ضمن سياقات المركز، وهو يفكّر ويتفكّر في شؤونه وشؤون غيره."[2]

اعتبرت الهوية على أنها "عملية لغوية مزدوجة: المفاضلة والتعميم. الأولى هي العملية التي تهدف إلى تعريف الفارق، ما يحقق فرادة أمر ما أو شخص ما مقارنةً بشخص آخر أو أمر آخر [فتحيل هنا على] الاختلاف، والثاني هو العملية التي تُحاول تعريف المشرك في فئة من العناصر، المختلف كليًّا عن فئة أخرى [وتدل هنا على] الانتماء المشترك،"[3] وهذا بالتالي يجعلنا نعي بإنفراد كل كائن بشري بهويته الذاتية وجوهره عن الآخر وانتمائه لمجموعة عرقية وجغرافية تتميز بخصائصها وتختلف عن المجموعة الأخرى.

علاوة على ذلك، لخطاب الهوية تقليدين مألوفين: الأول هو "التقليد الفلسفي الذي ينظر إلى الهوية بوصفها سيرورة من الانعكاس الذاتي في مرآة الطبيعة (الإنسانية)، والسيطرة الأنثروبولوجية التي ترى اختلاف الهوية الإنسانية متموقعًا في الانقسام إلى الطبيعة/ الثقافة،"[4] وفي هذين التقليدين إحالة إلى تلك الصورة النمطية التي تشكلت وبات يُنظر بها إلى المشرقي بصفة عامة.

والاسم كونه من أبرز أشكال الانتماء والهوية الفردية عملت الذات الأوروبية على تجريده من صاحبه وانتزاعه بالقوة، وفي سياق رواية "ما رواه المغربي" وبعد أن وجد مصطفى الأزموري نفسه في رحلة لم يختارها عبر من خلالها الحدود الجغرافية لبلاده، عرف هذا النوع من الاستبداد والغطرسة الغربية بعد أن أجبر على تغيير اسمه من مصطفى إلى "إستيبانكو"؛ هذا الإسم الإسباني المليء بحمولة ثقافية ودينية وخلفيات مغايرة لما اعتاد عليه مصطفى في بلاده، هذا الإسم الذي يتماهى أيضًا مع القشتاليين وثقافتهم ولغتهم وتاريخهم ودينهم ويخالف ما حمله اسم مصطفى من دلالات.

لقد كان في انتزاع هذ الاسم انفصام وانتزاع لما يربط مصطفى وهويته الأصلية بحمولتها الثقافية والتاريخية التي عاش فيها، وكذا لغته ودينه، وبالتالي انفصل عن ماضيه وجذوره فأصبح بهوية جديدة، غريبًا ويعيش في أزمة هوية، فهو الذي قال بنفسه أنه اسم ثقيل لم يرق له أبداً فأحس وكأنه أصبح سوى " رجل وُلد على يد رجال فشتالة ولا يشبهني في شيء قط."[5] فقد عُرف القشتاليُّون

منذ زمن بسياسات محو الهويات خلال غزوهم سواء لبلاد المسلمين أو غيرها أو كما قال عنها عبد الله إبراهيم أن حملات اجتثاثها تبدأ من "تخريب ركائز الهوية."[6]

لقد أصبح مصطفى الأزموري عبدًا مملوكًا لدى القشتاليين وأسيرًا عندهم بعد أن باع نفسه لهم في أرض أجداده المغرب، ونجده يحيل على ذلك في سطور حكايته التي يرويها وهو مايزال يتذكر أيّام حريته في بلاده، لكن اهتمامنا ينصبّ حول إشكال التسمية داخل الرواية وكيف أن القشتاليون اعتادوا أن يطلقوا أسماءً جديدةً أينما وطأت أقدامهم دون أن يراعوا إحتمالية وجود إسم لتلك البلاد أو لذلك العبد.

## 2. دور هذه السياسات في تعزيز الهيمنة الاستعمارية:

إن تجريد العبيد أو «المحليين» من أسمائهم هو صورة فقط من صور تجريدهم من كل شيء آخر يملكونه، وفرض لواقع جديد وسياق مختلف يقتضي بضرورة التغيير من أجل التماشي مع ما تتطلّبه الجغرافيا والانتماء الجديد، فيسلب الغُزاةُ من العبيد أسمائهم ويعوضونها بأخرى جديدة حرصًا على عدم تمكنهم كأفراد من أن يمثّلوا هويتهم وكأنهم ولدوا من جديد، وإجراء كهذا يهدف إلى نشر وتعزيز سيطرة السيّد على العبد ومظهرًا من مظاهر إظهار سلطته وتفوقه العرقي، وأيضًا التقليل من هويته الأصلية وقيمته كفرد، وفي ذلك تحقيق لما ذكره عبد الله إبراهيم عن خضوع المركزية الغربية لفسلفة الاستشراق "التي قامت بترتيب شؤون الآخر على وفق أنساق عقلية لتجد مكانها في منظومة تلك المركزية."[7]

وفي مقابل ذلك يجد العبد نفسه في غربة تجاوزت وفاقت غربة المكان والزمان إلى غربة الذات وفقدانها، والانفصال عن الهوية الذاتية المرتبطة بجذور ماضيه ما يسفر بعد ذلك عن صراع داخلي وخارجي، حينها يبدأ في محاولة البحث عن نفسه وذاته وعن المعنى من وجوده، السعي نحو إيجاد وسيلة للمقاومة من أجل تحقيق أو إعادة تشكيل ذاته من جديد، وهذا ما يمكننا اعتباره بمثابة "تعددية منظورية تبرز من خلال تعدد الأصوات (صوت الكولونيالية وصوت المقاومة وصوت السلطة)،"[8] تتقابل فيها كلٌّ من السردية الكولونيالية والسردية المقاومة.

هذا يبين بشكل واضح أيضًا العلاقة السُّلطوية غير المتوازنة بين المستعمرين والمستعمرات، وكذا آثار وأبعاد الاستعباد على تشكيل الهويات خاصة الفردية للشعوب، فما نستنتجه من توتر حاصل بين الهوية الأصلية والهوية التي فُرضت عليه نجم عنه نوع من الألم والصراع النفسي، فالتسمية الجديدة تستحضر دلالات جديدة وبداية جديدة بتحديات كثيرة.

من جهة أخرى؛ إذا نظرنا إلى من وجهة نظر فانون على سبيل المثال وبالتحديد فيما يخص الاغتراب الثقافي والعلاقة الكولونيالية بين الرجل الأبيض والرجل الأسود، فمصطفى قد عُرِفَ ووُصِفَ على أنه شخص أسود ينتمي إلى دول الهامش، جاهل ومتخلّف، وعلى هذا الأساس تمّ التعامل معه، وبعد أن بيع وهاجر مع سيّده أصبح إنسان كولونيالي مغترب تمّ إعطائه إسم جديد يحيل أو يتقمّص قناع الرجل الأبيض وفي ذلك نفي ومحو لهويته بالتأكيد، فالذات بوصفها "موقعًا للهوية والاستقلال،"[9] غدت مُشتّتة وفارغة.

هذا بإمكانه أن يحيلنا إلى وجود إزدواجية للهوية، وفي هذه الحالة كون أن "مثل هذه الهويات الثنائية المؤلفة من جزأين، تعمل في نوع من الانعكاس النرجسي لـ الواحد في الآخر،"[10] ولتعزيز هذا القول يمكننا أن نستحضر مثلاً ما يجول في خاطر "مصطفى الأزموري" ووجهة نظره سواء حول عدم رضاه عن اسمه الجديد أو عن المعاملة التي يتلقّاها من سيده، وكيف أنه يرفض تلك الانتهاكات التي يمارسها وذلك من خلال صوته الداخلي الذي مازال يحتفظ به.

هذا ما يتماشى وهويته الأصلية وخلفياتها ومبادئها وكذا السياق الديني الذي اعتاد عليه، ناهيك عن حضور النزعة الإنسانية وفطرته التي فُطر عليها، ما يدل على انتفاضة الهوية لكن دون صوت. إلاَّ أنه في أحيان أخرى يُعجبُ بقوة سيده وعنجهيته بالرغم من أنّه عبد عنده وربّما هذا يتماشى مع إسم "إستيبانكو"، وهنا يدخل نوعًا ما وبالتالي يمكننا أن نعتبر هذا من أسباب تغيير إسم العبيد أي قصد جعلهم صامتين وغير قادرين على التمرد أو الاعتراض مهما تكن الانتهاكات شنيعة، فيصبحون مجرد تابعين لأسيادهم وغير قادرين على التحدث بصوت مسموع، والتأكيد على لسان مصطفى: "لقد عودني الرّق على أن أحجب ما بباطني كيلا يظهر على وجهي، ولكنّي رأيت في المرآة في ذلك اليوم عينيّ تفيضات قلقًا..." [11] وأيضًا عندما قال: "فآثرت الركون إلى الصمت والاستغراق في لجج النكران، تاركًا له وحده عز الاكتشاف."[12]

ووجود الشخصية في فضاء الهيمنة الإمبراطوية – حسب عبد الله إبراهيم – ليس لها " تطلّعات ضيقة، فهي مندمجة في المجال العام وحاملة لقيم الإمبراطورية، وإذا ما حدث وتعثّرت، فإنما لتنهض ثانية من كبوتها لمواصلة مسعاها من أجل تحسين حال العالم."[13]

وفي سياق مصطفى الأزموري كونه أصبح ينتمي إلى الإمبراطورية وهو أيضًا بطل حكايته والسردية المقاومة؛ يعتبر حاملاً لقيم "خاصّة مختلفة عن قيم الجماعة، لكنه لا يضع نفسه في تعارض معها، إنّما يسعى إلى ترقيتها من أجل الحفاظ على الإمبراطورية وتغذيتها بأفكار أخرى. وتأخذ حركته الواسعة في أرجاء الإمبراطورية دلالتها السردية، من حيث أنها تكشف التجربة التاريخية للإمبراطورية وطبيعتها، والأدوار الفاعلة للأباطرة والملوك والنخب المنخرطة في خدمتهم، ورهانات القوة والضعف في مارسة السلطة."[14]

إن هذه الممارسات توضحُ شكلاً من أشكال العنف الكولونيالي الذي تعرّض له مصطفى وبالتالي صنع منه أنا (ذات) جديدة، وأعطاه هوية جديدة، ففُقدت الهوية في ضل الهيمنة الاستعمارية الامبريالية، وسادة فكرة الإمبراطورية التي لها الحق في أخذ والاستيلاء على ما تريد من المحليين المهمشين دون حق أو محاسبة.

### 3. دور الرواية في دحض السرديات الاستعمارية وتقديم سرديات مقاومة:

يقتضي العنف والمواجهة الكولونيالية وجود صراع للسّرديات، فمن جهة توجد السرديات الاستعمارية بأبعادها المغلوطة التي تحاول بشتى الطرق أن تنشر وتروّج روايتها وإيديولوجيتها على نطاق واسع، هذه الإيديولوجية المبنية على أفكار مُنحازة لواقع إستعماري مُستبد ومسيطر ومتعالي يبرر ويشجّع الممارسات الاستعمارية التي تهدف إلى تقليص بل إلى طمس الثقافة الأصلية للشعوب المستعمَرة، وكذا تشويهها وتسويق صورة سلبية عنها، وأشهر ما يقال في مثل هذه الحالة: أن هذه الشعوب (هي شعوب متخلّفة متوحّشة، ودونية، لا تستطيع تقرير مصيرها بنفسها...)، وبالتالي لا غنى عن السيطرة الاستعمارية قصد تحقيق الرقيّ والازدهار، الشيء الذي يعزز الفجوات والتفاوتات الثقافية والاجتماعية بين المركز والهامش، وفي غالب الأحيان تنجح هذه السرديات على على إعادة تشكيل الوعي العام أو توجيهه لصالحها من خلال ما تمارسه من ألاعيب وما تستخدمه من وسائل لإقناع الشعوب بشرعيتها وحسن نواياها، وبتعبير أكثر دقة؛ تنتهج الإمبراطوريات سياسات " تمنح الشّرعية لممارسة الهيمنة الشاملة لسلطاتها حيثما امتد نفوذها، فتبتكر جملة من المرويات السردية تعيد بها توطين مفاهيم الحياة كلّها، معتقدة أنها تعرض خلاصًا نهائيًّا للمشكلات الدينيّة والدنيويّة عند شعوبها، فهي بذلك تتجاهل شروط الواقع، فسقط في التجريد المطلق، فتنحسر فعاليتها بمرور الزمن وتنفك."[15]

هذا ما يحيل على ظهور سرديات المقاومة والتي تمتلك دورًا محوريًّا في المعادلة ويتمثل ذلك في نفي وإلغاء ما زعمته السرديات الكولونيالية، فتحاول نقد كل ما له طابع كولونيالي، وتفضح التجاوزات والظّلم المرتكب في حق المجتمعات المستعمرة القابعة تحت رحمة الاضطهاد، فتعمل على استعادة كرامة الشعوب المنبوذة والمهمّشة، وهوياتها الثقافية التي تم تشويهها، وأيضًا تاريخها المثمل في ماضيها وحاضرها من أجل بناء مستقبل دون استعمار.

والرواية كجنس أدبي تعتبر من أبرز الوسائل وأنجعها لبلورة سردية غير منحازة مبنيّة على حقائق من خلال ممارسة صاحبها الحفريات اللّازمة بمختلف أنواعها، وإذ اعتبرنا أن الرواية تقوم مقام الوثيقة التاريخية التي صيغت بلغة أدبية جمالية عملت في سياقاتها ومكوناتها على استحضار وتبيين ما زوّره التاريخ وأخفاه وأخرسه من وقائع، وفي مقابل ذلك تهويل بعض من هذه الحقائق من خلال سرديات أصبحت من المسلّمات والرواية عملت على نقدها.

وقد عمل كتّاب الرواية ما بعد الكولونيالية على إعادة تشكيل صورة المهمّش في التاريخ وإعطائه الحق في سرد وجهة نظره من الأحداث بعد ما كان منفيًّا، ومغيّبًا بالكامل وغير معترف به، كما و عملوا على تفكيك الخطابات والممارسات التي تمّ السكوت عنها، وحاولوا نقد الذات والآخر من خلال الستحضارهم لمجموعة من التمثّلات، قصد بلوغ الذات إلى أن تكون "ذات فاعلة قادرة على أن تسمّي نفسها وهي تعطي العالم دلالته،"[16] فأصبح هاؤلاء كرحّالة في زمن سردي تمّ تحديده مسبقًا وتم فيه مراعاة سياق سياسي واجتماعي.

جرى اعتبار أن رواية "ما رواه المغربي" أنها عبارة عن تخييل تاريخي لما فيها من سرد لوقائع وأحداث تاريخية على لسان سارد واحد، بناءً على مرجعيات وحفريات مارستها الكاتبة بلا شك، وذلك من أجل ربط الماضي بالحاضر وتقديم سردية مغايرة اما تمّ الاعتياد على تداوله والتي كانت تقتات على معيار مركزي غربي هدفه التعمية وطمس الحقائق، والارتقاء بذات المستعمِر على حساب تهميش الآخر والانتقاص منه.

وهدفت الرواية من سطورها الأولى إلى تقديم مادة موضوعية تتشكّل انطلاقًا من التحليل والنقد، لكن بالتأكيد لن تخلو من الذاتية كون أنه لا يوجد عمل أدبي يخلو من ذاتية صاحبه، فقد حاولت ليلى العلمي على إعادة تمثيل ذات السارد (مصطفى الأزموري) الذي كان بمثابة صوت جاء ليدحض السردية الكولونيالية – حتى وإن كنا نجهلها – ويبيّن لنا ما صُرِف النظر عنه، وكيف قامت الإمبراطوريات على قمع الحقوق والحريّات وتكميم أفواه العبيد ونزع ألسنتهم وتغييبهم كليًّا.

**الهوامش:**

[1] انضيرة بريوة، ازدواجية الهوية: الفضاء الثالث وتفكيك المركزية الغربية في رواية ما بعد الكولونيالية "الفتاة المسلمة" لأم زكية نموذجًا، **مجلة أنساق**، العدد 2، 2021م، ص 254.

[2] عبد الله إبراهيم، **الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة**، دار الأمان، 2010م، الرباط، ص 175.

[3] كلود دوبار، **أزمة الهويات تفسير تحول**، ت: زندة بعث، المكتبة الشرقية، ط 1، 2008م، لبنان، ص 18.

[4] هومي بابا، **موقع الثقافة**، ت: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2004م، القاهرة، ص 112.

[5] ليلى العلمي، **ما رواه المغربي**، ت: نوف الميموني، دار أثر للنشر والتوزيع، ط 1، 2017م، ص 13.

[6] عبد الله إبراهيم، **التخييل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2011م، ص 110.

[7] عبد الله إبراهيم، **الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة**، دار الأمان، 2010م، الرباط، ص 175.

[8] محمد بوعزة، تشكل الهوية في ظل المواجهة الكولونيالية، **تباين**، العدد 7/26، 2018م، ص 12.

[9] هومي بابا، **موقع الثقافة**، ت: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2004م، القاهرة، ص 117.

[10] نفسه، ص 119.

[11] ليلى العلمي، **ما رواه المغربي**، ت: نوف الميموني، دار أثر للنشر والتوزيع، ط 1، 2017م، ص 20.

[12] نفسه، ص 15.

[13] عبد الله إبراهيم، **التخييل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2011م، ص 17.

[14] نفسه، ص 18.

[15] عبد الله إبراهيم، **التخييل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2011م، ص 17.

[16] بول ريكور، **الذات عينها كآخر**، ت: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، 2005، لبنان، ص 250.